من الأدب الحضرمي

ابن شهاب العلوي

للأستاذ علي عبود العلوي

[السيد أبو بكر بن عبد الرحمن بن شهاب الدين العلوي شخصية بارزة في سماء الأدب الحضرمي تأتي نجمها من أواخر القرن الثالث عشر الهجري إلى أوائل العقد الخامس من الرابع عشر

وقد تزعم الحركة الأدبية بحضرموت وهو لم يتجاوز العقد الثاني من العمر ونهض بحضرموت في عالم الأدب بعد أن كان حظها من النهوض فيه قليلا

ولئن تغلبت عليه الناحية العلمية فاستأثرت منه بالتفكير وقطعت من حياته جزءاً عظيما في التأليف ، وأرغمته أن يترك لنا ذخيرة في العلم وثروة كبيرة جليلة المقدار تقارب الثلاثين مؤلفاً ، فأشهد أنه فوق هذا كان الأديب بالطبع ، والأدب سلوته الوحيدة وثروته التي لا تنفد ، ورأس ماله العظيم

ولو وجد في بيئة شاعرة لكان منه أديب كبير نفاخر به العالم قرأت ديوانه منذ ثلاث سنوات وعلقت عليه مذكرات يصح أن يستقل بها كتاب خاص وهذه الكلمة من إحدى فصوله

زار ابن شهاب مصر والعالم العربي والاسلامي عام ١٣٠٣ هـ وألمعه جو مصر بست عشرة قصيدة

ولد الشهاب العلوي بحضرموت سنة ١٢٦٢ هـ وتوفي بحيدر أباد دكهن بالهند في ٢٩ / ١٢ / ١٩٢٢ الموافق ١٠ / ٥ / ١٣٤١ هـ]

البيئة المحافظة وحياة الشاعر :

قضى الأمر ولات مفر أن ينشأ شاعرنا في البيئة المحافظة وهو الشاعر . والشاعرية ثورة نفسية تطمح لتحطيم القيود ، وتجنح إلى إرضاء النفس واتساع العاطفة ، وتميل إلى التغني بمحاسن الجمال ، وتخفق أجنحتها حينما ترى الوسامة والصباحة في الفد السمهري تخطر في كوكبنا الأرضي ، كالنجوم تتلألأ في السماء !

ولكن يحول دون ورود مناهل هذه الرياض ذات الأريج المنعش ما سنته أحلام الفلاسفة وفرضته الأديان وأقره العرف واصطلحت عليه الإنسانية منذ عصورها الأولى فورثته لنا أجيالها القديمة حتى صار من الأسس المقررة التي لا يمكن الخروج عليها دون أن تثور ثائرة الرأي العام وتقوم بصخبها المعظيم تجاه النفوس الحساسة الرقيقة

ولئن كانت في هذه الثورة نوازع إنسانية كثيرة جديرة بالإكبار والإعجاب ، فإن فيها من الشطط والإجحاف بحقوق العالم الروحي شيئاً كثيراً ، لا سيما وأن المجتمع الحضرمي كغيره من مجتمعات بني الدنيا ، قد أضافوا إلى القيود التي ترتضيها العقل والدين والعلم قيوداً أخرى لا تمت إلى الإصلاح بشيء

اللهم إلا إن كان جانب الإصلاح فيها ضئيلاً . وعلى كل فلن يقاس بالجانب المعظيم الذي فقدناه من جراء كتم العواطف عند ذوي الإحساس المرهف ، القادرين على التعبير عما تجيش به نفوسهم .

وإذا كانت هذه الأبوة الطفيلية تتهادى بها الأمم ، وتنتقل منها ولو إلى قطر بعيد كحضرموت قل من يقصده بالزيارة من بين الأقطار العربية والإسلامية بله الأقطار الأجنبية .

فإن حضرموت فوق ما سرى إليها من العدوى بيئة عربية إسلامية صوفية ، بلغت المثل الأعلى في تطبيق القول بالعمل ، حتى كأنها المعنية بقول الشاعر :

كأن ربك لم يخلق لخشيته ... سواهم من جميع الناس إنسانا

في هذه البيئة نشأ شاعرنا الشهاب العلوي ، وجاشت نفسه بالشعر وهو في سن المراهقة ، فتغنى وأغنى الشعب الحضرمي بالشعر الغنائي الوجداني ، وذاعت شهرته في النوادي الحضرية ، وفي المجتمع الحضري على اختلاف طبقاته ، لأنه كان يقول الشعر وهو في هذه السن المبكرة بلغة حضرموت الدارجة ، وبأوزانها الشعرية مما يدعونه بالشعر الحميني ، أي غير الشعر المعرب ذي الأوزان العروضية الخليلية

والشعر الحميني قد يكون مرسل القافية كما يكون رباعياً ،

وأحياناً ثنائياً بلا نغم مردد ، وإما ثالثاً بالنغم المردد[1]

فاضت نفس شاعرنا بالشعر الحميني وملأت به الجو الحضرمي

(١) الأنغام الحضرمية ليست لها دائرة علمية تنظمها وإنما ترد إلينا تباعاً من أماكن عديدة بحضرموت كوادي حجر بن دغار — ولوادي حجر ابن دغار في تاريخ حضرموت القديمة مكانة مرموقة في التاريخ ليس هنا موضع ذكرها — وترد إلينا من منحدر وادي حضرموت الشرقي وسمونه الغناء الحدري ومن غير هذه الأماكن

وجل الغناء الشعبي يدوي الهجة ولكنه يكهرب الحضرمي ويبعث فيه السرور والنشوة ويوقظ فيه الحمية والأريحية والنجدة

لم أهتم بدراسة الموسيقى — الأنغام — الحضرمية عند ما كنت بحضرموت ، ولو قصدت لما استطعت لأني أجهل علم الموسيقى ، وإنما الذي يعنيني أن أقوله : هو أن أساتذة الأنغام كما سمعت عنهم : كثيراً ما يهيمون في الجبال والأودية يترقبون الوحي وهم في النزلة حتى يفتح الله عليهم أو تلهمهم آلهة الشعر ما تصبو إليه نفوسهم فيعودون إلى أهلهم وأقاربهم وهم تملون بما اكتنفوه من آيات الفن الثنائي وقد توجوه بما تحيش به نفوسهم الشاعرة من الشعر ليتغنوا به وليذيعوه ما بين الشعب الحضرمي

وما هي إلا أيام قلائل حتى ينتقل من بلد إلى بلد ومن قرية إلى قرية ومن واد إلى آخر حتى تتغنى به حضرموت كلها ، ولا يقتصر التغني به على عامة الشعب بل تردان به مجالس الطبقة المثقفة وتتهافت سراة القوم وأرباب الأدب على القول فيه ، والفرق بين القول والقول هو ما تنتجه القرائح المثقفة والتي لم يكن لها نصيب من التثقيف

شهدت حفلة زواج لأحد سراة العلويين وأدبائهم سنة ١٣٤٠ هـ — هو السيد العلامة الأديب المرحوم الحسن بن عبد الله الكاف العلوي المتوفى بفرم سنة ١٣٤٦ هـ وعائلة آل الكاف إحدى العائلات العلوية المشهورة بالثروة والغنى وحب الاصلاح — وفي الليلة الثالثة من حفلة الزواج كانت حفلة سمر حضرتها كما شهدها بعض أقرباء العروسين وغيرهم ، وكان يحيي عند السيد الكاف مغنٍ رخيم الصوت حسن الغناء ، وبعد أن قدمت أنواع المرطبات بمختلف أجناسها استدعى السيد المذكور المغني واقترح عليه الغناء بأحد الأنغام الحضرمية وأخذ يملي عليه الأبيات تلو الأبيات وما انقطع عن قول الشعر إلا بعد أن استأذن للانصراف . ومما أريد أن أقوله للدلالة على الفوارق الأدبية والتي لم يكن لها حظ منه ، أو كان لها حظ منه ولكنه قليل ، أن أحد أقرباء العروسين غاب عن المجلس هو وابن خاله . وفي أثناء غيبتهما قدمت أصناف المأكولات ، وبعد عودتهما علم قريب العروسين بما لم يرزقه الحظ أن يناله فقال مخاطباً السيد الكاف :

يَا عَمِّي حَسَنْ قُمْ هَاتْ قِسْمِي مِنْ عِنْدِ الحبائِبْ قِدْهْ
مَسْمِيْ لِي مَطْرُوحْ طَالِعْ وَسْطِ لِصْحَانْ صُبِّيْ يَا مَطَرْ وَالرَّعْدْ
حُنَّانْ تخميس

فأجابه السري السقاف : رُوْعَكْ قَدْ بَدَرْ وَالوَشِرْ ، مِرْمِيْ
حَظَّكْ قَدْ قَصَرْ ، سَايَرَتْ مَعْمِي بِنْ خَالَكْ عُمَرْ ، له قلب حيران...
صبي يا مطر

ألفاظ الأبيات : الأصحان بمعنى الأطباق . روعك نصيبك . الوشر نشارة الخشب والكلمة مشتقة من وشر ولم يراعوا القاعدة في التصريف

ولكنها بعد ذلك سمت إلى أن تسامى في القصيد العربي الخالد ، وأن ترد المنهل الكبير منه ، وأن تشاطر في المثل السامي الذي اتخذته العروبة لها نبراساً تستقي به مطلعها الشعرية

وليس من الصعب على نفس شاعرة بطبيعتها ألا تهتدي إلى بنائيه العذبة ، ولكن من الصعب علينا نحن أن نتبين تاريخ الدور الذي جنحت إليه نفس شاعرنا بالضبط ، لأن ديوانه قد خلا من إثبات أشعاره وهو في دور العقد الثاني وأ العقد الثالث ؛ وكل ما نعرفه عن مقدرته الشعرية في هذا الدور تلك الأرجوزة التي نظمها في علم الفرائض ، وضمنها كل ما يحتويه الفن إجابة لاقتراح أحد مشائخه عليه[1] ، والتي يقول في مطلعها :

لله حمدي وارث الأرض المتين ومن عليها وهو خير الوارثين

وفي ختامها يقول :

فاصفح وأصلح مابها من الغلط فقد أتى: من ذا الذي ماساء قط
وعذر من لم يبلغ المشرينا يقبل عند الناس أجمعينا

أو قصيدته التي امتدح بها شريف مكة الشريف عبد الله باشا ابن عون الحسيني وعمره إذ ذاك ٢٤ سنة ، قال :

حي الحيا حياً به حلت سُما ومنازلاً خطرت بهن وأربعا
وهمت على الوادي الذي سكنت به ديم تغادره أنيقاً ممرعا

(١) نظم السيد ابن شهاب الأرجوزة وعمره ١٨ سنة وشرحها فيما بعد بكتابه سماه : الفتوحات . وقد أكبر المنظومة والشرح علماء حضرموت واليمن وانتدب أحد أشراف اليمن وعلمائها فوضع عليها حاشية

ويقال : إن السيد ضمنها علم الفرائض ولم يغادر منه شاردة أو واردة إلا أشار إليها . ومن العجب أن يتهيأ له نظمها في ليلة واحدة . وكما أذكر أن أبياتها نحو ٣٠٠ بيت

ونس صديقنا الأديب الشاعر صالح الحامد العلوي في مقال له : نشر من ابن شهاب على أن المقترح لنظم الأرجوزة هو الامام العلامة كبير علماء حضرموت ومعين أعيان مشائخ الصوفية السيد علي بن محمد ابن حسين الحبشي العلوي المتوفى بسيون يوم الاثنين ٢٠ / ٤ / ١٣٣٣ : وأنا أروي قوله بتحفظ : لما بين ميلاد السيد ابن الجليلين من تقارب في المدة فقد وجد ابن شهاب عام ١٢٦٢ هـ والامام الحبشي في ٢٤ شوال سنة ١٢٥٩ هـ . وإن لم تخني الذاكرة فان المقترح لنظم الأرجوزة هو شيخه المؤرخ النسابة مفتي حضرموت السيد عبد الرحمن بن محمد المشهور العلوي الموجود بفرم ١٢٥٠ هـ والمتوفى بها ليلة السبت ١٦ / ٢ / ١٣٢٠ هـ

وسقى العهاد مساهداً بسفوحها تختال جارات الصفا والمدعى
دمم أوانس سيدهن محرم ليظلن فى تلك المحاجر رتّما
سود الذوائب والجلاب والعيون القاتلات متيما ومولما
من كل غانية بلطف حديثها ودلالها تذر الفؤاد مقطما
يا ظبية البطحاء مهلاً إننى بهواك ذو كلف سقيما موجعا
هل تسعفين فدآ لحسنك مهجتى بالوصل فاشفف يفيض الأدمعا
واقضى لبانتـــه لديك وزحزحى
عن وجهك الحسن الصبيح البرقعا
حاشا لحسنك أن يكون محرماً ولمثل وصلك أن يكون ممنعا
تيهى فإنك فى الحسان مليكة يأتين نحو حماك شعثاً خضعا
وتمايلى بحلى محاسنك التى لم تتركى لسواك فيها مطمعا
وتبخترى جذلاً فقد جاوزت من جمع المفاخر والمكارم أجمعا
قمر البطاح خليفة الحرمين مو لانا أباشرف الشريف الأروعا
إلى آخر ما قال

ومن الظلم ألا أشير إشارة إجمالية إلى أن ابن شهاب فى هذا العهد لا يزال يتوثب للصعود، ولكنه مكبل بقيود الصنعة الزائفة :

حى الحيا حياً به حلت سعا ومنازلاً خطرت بهن وأربعا

أو سود الذوائب ... الذى مصدره التقليد المحض أو الإعجاب بما قال أبو الطيب :

من الجآذر فى زى الأعاريب حمر الحلى والمطايا والجلاليب

والفتى الناهض لا بد أن يتحرر يوماً ما وأن يصبح حراً طليقاً ليتغنى بالشعر كما توحى به العاطفة، لا كما تريده الصناعة الزائفة. وفى الفصل الذى يتضمن الكلام على الأدوار التى اجتازت بها شاعرية شيخ حضرموت سترى ذلك

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر، فإن الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد ذكر عن أهل الجيل الماضى بأنهم كانوا لا يرون الشعر إلا مناسبة لسانية، ومساجلة كلامية، ولياقة منطق، وسرعة جواب وارتجال[1]

وكذلك قدر لابن شهاب أن يدخل فى شراك هذه الأحبولة الضيقة، فإن الشريف عبد الله ارتاب فى أن تكون القصيدة لشاعر حضرموت، وظن أنها مقولة على لسانه؛ لا سيما وقد شايعه على هذا الرأى أحد ندمائه، إذ أسر إليه فى المجلس بذلك فاقترح الشريف على شاعرنا أن يجيز البيت الآتى ليختبر بذلك قريحته :

صفى الوقت لا أبناء الزنا ولمن يحسن ضرباً وغنى

ولا مناص لابن شهاب من أن يقيم الدليل على شاعريته فيقول[1] :

وبنو الدهر كما قد مال ما لوا إلى من كان منهم ذا غنى
قل أن يوجد منهم منصف أنا قد جبت القرى والمدنا
وبلوت الناس طراً فإذا أكثر الناس أرقاء الدنا
جانبوا الصدق الذى من قاله بان إبريزاً إذا ما أمتحنا
عزفت أنفسهم عن كل من كان من أهل المثانى والثنا
وغدوا لم يرفعوا رأساً بمن لهم الآداب كانت ديدنا

ذلك ذوق عصر نرجو بأنفسنا اليوم أن نقفو إثره أو نتبع خطواته. وما أدرى مقدار صحة الرواية التى نصت على الحكاية المذكورة، وإن كنت أعرف أنها دليل على انحطاط الذوق الأدبى والاجتماعى

يا ترى ماذا أريد أن أقول؟!

أظننى أريد أن أقول : إن السيد ابن شهاب كثيراً من الشعر الوجدانى الذى ماجت به عاطفة الشباب ودفعته به خصوبة النفس اليقظة الشاعرة التى يستهويها الجمال، والتغنى بمشاعر القلب والوجدان، ولكن ظروف البيئة المثقفة بالروح الصوفية هى التى حرمتنا الاستفادة من شعر الغناء والوجدان.

ومن ناحية أخرى فإن العزلة التى استهوت حضرموت والتى لا تزال تستهويها إلى اليوم وصيرتها بمعزل بعيد عن الأخذ بوسائل النهوض وتنمية المعارف والثقافة، هى التى هيأت الفرصة

(١) ٨٩ من شعراء مصر

(١) ٢٤٧ من ديوانه

لأن يتكمش ابن شهاب فى آخر عمره عن نشر آثاره التى تحمل سورة الصبا ومطارح الفتون والفتوة .

ولو كانت لنا إذ ذاك مجلة أدبية أو صحيفة سياسية أو اجتماعية لما أمكن شاعرنا أن يتنازل عن بنات أفكاره ؛ ولأنه لو فعل لاستطعنا الوصول إلى أشعاره بلا أقل كلفة ولا عناء .

ولا تزال ترن فى أذنى سورة القصيدة التى أنشدنى إياها حفيد الشاعر الأديب السيد حسن بن عمر الشاطرى العلوى وذلك منذ سنوات وأنا بجاوة .

نعم لا أزال أذكرها لاستحسانى إياها إذ ذاك وهى من الأشعار التى لم تثبت فى ديوانه [1]

وإنا كنت على ذكرى لإعجابى بالقصيدة فإنى لا أعرف الأسباب التى حالت بينى وطلب نسخة منها من صديقى الأديب لاحتفظ بها مع المذكرات التى جمعتها فى تاريخ حضرموت .

لا أريد أن أحجم عن أن أبين الغرض المقصود من ذلك

إن السيد ابن شهاب كما ذكرت فى جملة التعريف به أكبر شخصية تزعمت النهضة الأدبية فى عصره الحضرمى . ومن كانت له هذه المكانة السامية جدير بأن تعطينا المعلومات الكافية عنه من كل الجهات ، وأن نتعرف إليه وهو فى سن الصبا كما نتعرف إليه وهو يافع وفتى وكهل لأن التعرف به هو التعرف إلى الأدب الحضرمى فى الصميم

ودراسة الأدب الحضرمى هى دراسة البيئة الحضرمية بما لها من مكانة علمية وأدبية وما فيها من عادات وأخلاق وميول ومشارب واصطلاحات وروح فكرية وصوفية

وهذه كلها قيم تاريخية جديرة باعتبارها فى المكان الأول فى تاريخ حضرموت الأدبى ، والبيئة المحافظة تقيس الآداب والفنون بمعيار علم الأخلاق .

على عبود العلوى

(١) فى انتناحية الديوان ما نصه :

« هذا ما أذن بنشره العلامة المصقع البليغ المتفنن السيد أبو بكر بن عبد الرحمن بن شهاب الدين العلوى الحسينى من شعره بعد عرضه عليه وتنقيحه لأكثره دون ما لم يأذن فيه أو استولت عليه أيدى الضياع من قبل فان له شعراً كثيراً ذهب مع الأيام » صحيفة ١٠٧

تاريخ بغداد

للحافظ أبى بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى

وضعه فى أزهى عصور الاسلام منذ تأسيسها إلى وقته عام ٤٦٣هـ ويشتمل على وصفها وتخطيطها وما كانت عليه من الحضارة والمدنية ويترجم فيه : « الخلفاء ، الملوك ، الأمراء ، الوزراء ، الأشراف ، والنحاة ، الصرفيين ، اليانيين ، النحويين ، القراء ، المفسرين ، المحدثين ، المتكلمين ، المنطقيين ، الأصوليين ، المجتهدين ، الفقهاء ، القضاة ، الزهاد ، النساك ، المتصوفة ، القصاص ، الوعاظ ، المهندسين ، الرياضيين ، الفلكيين ، المنجمين ، الموسيقيين ، الأطباء ، الصيادلة ، الجراحين ، الكتاب ، المؤدبين ، النسابين ، المؤرخين ، الشعراء ، المغنين ، وحذاق الصناع ممن نبغ فيها أو ورد عليها من غير أهلها وما انتهى إليه علمه من كنائم وألقابهم وأنسابهم ومشهور مآثرهم ومستحسن أخبارهم وتاريخ وفياتهم ، وختمه بذكر شهيرات النساء والأماء ومستملح لطائفهن . . . الخ

٦٧٥٠ صفحة فى ١٤ جزءاً (ورق شام)

وثمنه ٧٠ قرش صاغ والبريد ١٠ قروش

يطلب من مكتبة الجامعة بشارع محمد على بمصر

لازمكم بعد الآن !

أحدث الاكتشافات العلمية فى صحة الفم !

اليودكليدكلور للأسنان :

يودكليدكلور

أطلب النشرة العلمية الخاصة من :

جلان نهورمين صندوق بوستة ٢١٠٥ مصر

(س . ت ٥٢٢٧)